Journal of Alasmarya University
Volume 18, June 2013

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثامن عشر، يونيو 2013

وقفة مع الاستشراق

د. المختار علي الطوير*

قبل الخوض في هذا الموضوع ينبغي التطرق أولاً إلى مفهوم الاستشراق ومراحل نشأته حتى يمكن الحكم عليه سلباً أو إيجاباً.

تعريف الاستشراق

فرغم أن البعض يرى أن إعطاء تعريف جامع مانع لأي علم من العلوم يعد إيغالاً في التكلف؛ لأن كل تعريف يمكن أن نجهد به أنفسنا لا يكون شاملاً، لعدم احتوائه على تحديد جواهر الأشياء، والعناصر الأساسية التي يتألف منها، ومن هنا لا يمكن أن تصل معظم التعريفات إلى هذه الدرجة من الدقة[1]. لأنها لا تقدم في أغلب الأحوال إلا مجموعة من الشروح والإيضاحات على حساب لب الأشياء وجواهرها، الأمر الذي دفع بعض المفكرين إلى المطالبة بنبذ مثل هذه التعريفات جملة وتفصيلاً، نتيجة لمثل هذه الصعوبات التي تقف دون التعريف الحقيقي للأشياء، وتمنع الوصول إلى الدقة والوضوح.

ورغم ذلك توصل الباحثون إلى تعريفات لمفهوم الاستشراق يمكن استعراضها بصورة مقتضبة.

---

* جامعة الجبل الغربي، كلية الآداب.

1- انظر: ابن سينا، كتاب الإشارات والتنبيهات، نشر فورجيته، ليون، 1982 م، ص 12.

فالاستشراق لغة: مشتق من كلمة شرق وهي جهة شروق الشمس، يقال شرقت الشمس شروقاً: إذا طلعت[2] وشرَق: أخذ في ناحية الشرق[3].

أما اصطلاحا: فهو علم يدرس لغات شعوب الشرق، وتراثها وحضاراتها ومجتمعاتها، وماضيها وحاضرها[4].

وعليه فإن العلاقة وثيقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي، فقد أطلق مصطلح الاستشراق على الدراسة التي تُعنى بالعالم الشرقي، وأطلق على الغربيين الذين يقومون بتلك الدراسات المستشرقون، وهم جماعة من المؤرخين والمفكرين والكتاب الأجانب الذين خصصوا جزءاً من حياتهم لدراسة وتتبع المواضيع التراثية، والتاريخية، والدينية، والاجتماعية للشرق[5].

كما وصفه البعض بأنه ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب، كما يقصد به أحياناً أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز الجغرافي والعرقي والأيديولوجي بين الشرق والغرب، ويرتبط هذا المفهوم أحياناً بالأشخاص الذين يقومون به، وهم الكتاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلاميين، والذين سموا بالمستشرقين[6]. ويرى حسن حنفي أن الاستشراق هو المقابل للاستغراب، فإذا كان الاستغراب هو رؤية الغرب من خلال الشرق ومنظوره، فإن الاستشراق هو رؤية الشرق من خلال الغرب ومنظوره، ويصفه بأنه رؤية الأنا الأوربي للآخر اللاأوروبي، وخاصة الشرقي[7]. بينما ذهب إدوارد سعيد إلى أن الاستشراق: لفظ أكاديمي صرف، والمستشرق هو كل من

2- مصطفى إبراهيم، المعجم الوسيط دار الفكر العربي القاهرة (بدون تاريخ)، 487/1، والرازي، مختار الصحاح، 336 بيروت (بدون تاريخ).

3- عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، بغداد 1981 م، ص 23.

4- انظر: فاروق عمر فوزي، الاستشراق وأثره على الدراسات الإسلامية، ط1، عمان 1981م، ص23.

5- م. ن. ص. ن.

6- انظر: ساسي الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ط1، 2، مركز دراسات العالم الإسلامي، ط1 1991 م، 18

7- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1، 1992م، ص 18.

يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه، وكل ما يعمله هذا المستشرق يسمى استشراقاً، وينعت الاستشراق بوصفه نمطاً من أنماط الإسقاط الغربي على الشرق، وإرادة السيطرة عليه[8]. وهو يراه توطئة لحملات التنصير والاحتلال التي كان يعدها الغرب للاهتمام بأحوال الشرق، والكشف عن عقليات شعوبه وأسراره، وأمزجته وحضاراته، وتلمس مواقع القوة والضعف لهذه الشعوب من أجل السيطرة عليها، وهو يرى أن هناك شرقاً جوهرياً لا يعرفه إلا المشارقة، ومن عانق نظرهم وقضيتهم، وشرقاً ظاهرياً أو مخلوقاً تنسب حقيقته إلى مقولات المستشرقين[9] الغربيين، ينعت الاستشراق بأنه قراءة الشرق بمنطق سلطوي يؤسس للتمييز بين نمط المعرفة الغربية التي توصف دائماً بالعقلانية، وبين الثقافة الشرقية التي بدت في كل التقريرات الاستشراقية عنواناً لنمط التفكير الأسطوري، ونموذجاً لعقل لا يمتلك الربط بين البرهان، وبين المقدمات والنتائج[10].

ويرى ساسي الحاج بأنه ليس هناك مفهوم محدد حول الاستشراق، فهناك من يطلق هذا المفهوم على كل من يقوم بدراسة الشرق، حتى وإن لم يكن من المتخصصين في الدراسات الإسلامية، ولكنهم من الذين يهتمون بالمسائل والقضايا الشرقية، دون أن يكونوا هم من هذه الأصقاع، ومنهم من ينظر إليه على أنه تلك الموضوعات والدراسات الإسلامية والمشرقية التي يعالجها المستشرقون بمناهج وطرق علمية كتلك التي يتبعها الغربيون في دراساتهم، ومنهم من اعتبر القائمين بتلك الدراسات لتحديد مفهوم الاستشراق حتى وإن كانوا لا يتقنون اللغات الشرقية، ولا يعرفون تاريخ الشرق وحضارته، أو خصائصه، والذين صنفهم ساسي الحاج تحت قائمة خبراء النفط والجواسيس ورجال الاستخبارات الذين يتخفون تحت قناع الدبلوماسية[11].

8- انظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ص 120.

9- سالم حميش، الاستشراق في أفق انسداده، المجلس القومي للثقافة العربية، ط 1 الرباط 1991 م، ص 9.

10- انظر: إدوارد سعيد، المصدر السابق، ص 260.

11- انظر: ساسي الحاج، المصدر السابق، ص 22.

أما منير بعلبكي فيذهب إلى أن المستشرق هو الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته[12] بينما يرى أحمد سمايلوفتش بأن معنى كلمة استشرق هو من أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم[13].

ويرى بعض الباحثين أن المستشرقين هم: الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، والحضارة الإسلامية[14].

ويكاد الاستشراق يكون علماً قائماً بذاته، له أصوله وفروعه ومقدماته ونتائجه، ويكاد يكوّن رجاله شعباً خاصاً له أفقه الخاص به، وحياته المقصورة عليه إلا أنه في دراسته للإسلام ليس علماً بأي مقياس علمي حسب رأي البعض وإنما هو عبارة عن أيدولوجيا يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق، أو مرتكزة على أوهام وافتراءات[15].

ويذهب البعض إلى أن المستشرق هو كل من تجرد من أهل الغرب إلى دراسة اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية، وتقصي آدابها طلباً لمعرفة شأن أمة أو أمم شرقية، من حيث أخلاقها، وعاداتها، وتاريخها، ودياناتها، وعلومها وآدابها، إلى غير ذلك[16].

كما يرى البعض أن المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، فلابد أن يتوفر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العالم المتخصص المتعمق، حتى ينتج ويفيد البشرية بإنتاجه العلمي[17].

12- انظر: محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط 1 1981 م، طرابلس، ص 59.

13- م. ن. ص. ن.

14- م. ن. ص. ن.

15- محمود زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة، ص 12.

16- انظر: عبد الوهاب حمودة، (من زلات المستشرقين) مجلة لواء الإسلام، مجلد 4 عدد 6، السنة الرابعة 1950م، ص 217.

17- انظر: محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، مصدر سابق، ص 22.

وجاء في الموسوعة العالمية أن الاستشراق هو حقل معرفي إبداعي ضخم نشأ في الغرب لدراسة الثقافات الشرقية وتمثلها في الفنون المختلفة، ويعتبر الجوانب السياسية والعلمية والدينية هي الأبرز بين جوانبه[18].

كما رأى البعض أن الاستشراق غزو فكري واستلاب حضاري، وهو استعمار جديد، فإذا كان الاستعمار القديم قد استعمر الأرض والبشر، فإن الاستشراق اتجه إلى استعمار البشر للبشر، وتمكن من تحقيق نتائج كبيرة بأقل خسائر ممكنة، والوصول إلى نتائج أخرى تؤثر على هوية هذه الأمة المستعمرة وانتمائها لحضارتها وثقافتها، وهو غزو شامل لجميع مؤسسات المجتمع المستعمر ثقافية كانت، أو اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية[19]. حتى ذهب البعض إلى أن الاستعمار ولد من أبوين غير شرعيين هما الاستشراق والتنصير، وأنه مازال يعمل من أجل هذا الغرض الذي ولد من أجله، وإن غير أساليبه، وبدل جلده مرات ليتلاءم مع الظروف المختلفة، وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التي تهدف من توظيفها للاستشراق إلى الحيلولة دون تجمع المسلمين والغرب في وحدة تقاوم وجودها[20].

والاستشراق له معنيان: معنى عام وهو الذي يختص بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه، وحضارته وأديانه، ومعنى خاص وهو الذي يختص بدراسة الشرق العربي الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وحضارته وعقائده وتشريعاته.

وهذا الأخير هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي

18- الموسوعة العلمية، مؤسسة آمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الجزء الأول، ط2 السعودية، 1999م، ص 713.

19- نبيل متولي، أخطار الأيديولوجية الصهيونية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط 1 طرابلس 1999 م، ص 33.

20- أحمد عبد الرحيم السائح، الحركة الاستشراقية وكيفية مواجهتها، مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد 7 العام 2000 م، ص 178.

و« الذي نقصده في هذا البحث» وهو الشائع في كتابات المستشرقين المعنيين به[21].

ومن هنا جاء تعريف الاستشراق بأنه: « دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وثقافة، وشريعة، وتاريخاً، وتنظيماً بهدف تشويه الإسلام، وتشكيك المسلمين فيه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبريرها عن طريق نظريات تدعي العلمية والموضوعية »[22] رغم أن من خصائص الفكر الاستشراقي الارتباط بالاستعمار والتنصير، وكذلك الارتباط بأدوات صنع القرار السياسي في الغرب ضد الإسلام والمسلمين الأمر الذي يجعله لا يلتزم بالموضوعية والحياد.

بينما يضيف باحث معاصر إلى تعريفات الاستشراق تعريفاً ذا دلالة علمية يرى فيه أن المدلول الفلكي والجغرافي قاصر عن إعطاء معنى حقيقي لمفهوم الاستشراق إذ أن البحث اللغوي في كلمة الشرق باللغات الأوربية من الأصل اللاتيني يوضح أن معناها يتمركز حول طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه، واستخدام كلمة بهذه الدلالة اسماً لعلوم تبحث في منطقة معينة، تعني اعترافاً بأن العلم والمعرفة والإرشاد كان يطلب من هذه المنطقة، وأن وصفها بالشرق يعني بالمقام الأول أنها المنطقة التي أشرقت فيها شمس المعرفة، وليست الشمس بمعناها الحسي المعروف[23].

نشأة الاستشراق

ولا يوجد اتفاق بين الباحثين على تحديد فترة معينة لبداية الاستشراق، فمنهم من أرجع تاريخه إلى القرون الأولى الميلادية، ومنهم من رآه بدأ

21- عبد الرحمن عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، ط1 بيروت، 1991 م، ص 9.

22- عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكان، ط 1 الرياض، 2001 م، ص 17.

23- انظر: المصدر نفسه، ص 18.

بمحاولات فردية في القرن العاشر الميلادي[24]. وخاصة عند الرهبان الذين قصدوا الأندلس إبان مجدها طلباً للعلم والمعرفة، ومنهم من يرى أنه بدأ في القرن الثالث عشر الميلادي في بعض البلدان الأوربية أو ربما قبل ذلك بقليل[25].

ومنهم من جعل الحروب الصليبية بداية للاستشراق، حيث بدأ الصراع السياسي والديني بين الشرق والغرب، بينما يرى آخرون أن بدايات الاستشراق قد تزامنت مع الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين والنصارى في الأندلس بعد استيلاء الفونسو السادس على طليطلة عام 1056م، كما ربط بعضهم بدايات الاستشراق بأول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية التي أنجزت بمدرسة الترجمة بطليطلة سنة 1143م[26]. غير أن البعض يرى أن الاستشراق الفعلي قد بدأ على أيدي علماء الغرب الذين قدموا مع الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 م وكانوا متخصصين في جميع فروع المعرفة، وقد تمكنوا من تأليف العديد من الأبحاث في دراستهم للشرق[27].

لكن النظرة الإسلامية ترى أن بداية الاستشراق كانت ناتجة عن حالة الغرب للرد على الإسلام، ولمعرفة أسباب القوة الدافعة لأبنائه، خاصة بعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، حيث وقف الإسلام سداً مانعاً لانتشار النصرانية، بالإضافة إلى شدة رغبة الغرب في تفّهم العقلية السامية ودراسة اللغة العربية وآدابها، وفهم عادات وتقاليد وأديان الشعوب التي أرادوا احتلالها بعد نهضتهم الأوروبية.

ورغم اختلاف الباحثين حول مفهوم الاستشراق ونشأته، فإن البعض يرى أن هذه النشأة قد تولدت عن مراحل تاريخية متعددة أهمها: مرحلة الانبهار بالحضارة

24- انظر: عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرتون، ط1، 1997م، ص 15-16.

25- مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2. 1979م، ص14.

26- محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث، دار الفكر، بيروت، ط2، 1973م، ص 532.

27- محمد الجليند، محمد الشرقاوي، دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1996م، ص 23.

الإسلامية، ومرحلة ما بعد الحروب الصليبية، ومرحلة التنظيم الفعلي للاستشراق ومرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وهذه المراحل ليست مستقلة عن بعضها البعض بجميع خصائصها وبواعثها ونتائجها، ولكنها دوائر متداخلة في بعضها لا تنفصم إحداها عن الأخرى، وكل مرحلة منها تتغلب خصائصها على المرحلة التي تليها.

فمرحلة الانبهار بالحضارة الإسلامية هي المرحلة التي يصفونها بمرحلة ولادة الاستشراق، والتي استيقظت فيها أوروبا من سباتها على جيوش الفتح الإسلامي وهي تفتح أبوابها حاملة معها نهضة وحضارة إسلامية لم تشهد لها أوروبا مثيلاً، الأمر الذي جعل الأوروبيين الغارقين في الجهل والتخلف ينكبون على البحث في أسباب نهضة المسلمين، وبلوغهم هذا المجد العظيم، ومنذ ذلك التاريخ بدأوا في دراسة علوم المسلمين ولغتهم، لإنقاذ أنفسهم من الجهل والتخلف، ثم إيقاف التيار الإسلامي، ومحاولة بلوغهم ركب الحضارة.

ورغم هذا الإعجاب والانبهار بالحضارة الإسلامية إلا أنهم لازالوا يصفون العصور الوسطى بالانحطاط والتخلف متناسبين بل معتّمين على دور هذه الحضارة الرائدة في تلك الحقبة بسبب عقدة الاستعلاء والتفوق التي يعانيها الأوروبيون تجاه الشعوب الأخرى.

وهرع الكثير منهم وفي مقدمتهم القساوسة والرهبان إلى مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا إبان ازدهارها، وتعلموا في مدارسها، وتثقفوا بثقافة أهلها، وتتلمذوا على أيدي علماء المسلمين في مختلف العلوم، وخاصة الطب والفلسفة والرياضيات وغيرها، وتمكنوا من تغيير أوضاعهم إلى الأفضل، حتى اعترف بعضهم بقوله: « لقد كنا برابرة ... لقد اقتبسنا أنبل عاداتنا عن طريق الحروب الصليبية والعرب في إسبانيا »[28]. وتمكنت طلائعهم الأولى من الخريجين من ترجمة الكثير من الكتب العربية إلى لغاتهم الأوروبية، مما سهّل لهم الاطلاع على تلك الثقافة الوافدة، كما كانت لهم بعثات رسمية جماعية وفدت إلى الأندلس للدراسة وطلب العلم، حيث تمكنوا من الاطلاع على الكنوز العلمية الزاخرة

28- محمد الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، مصدر سابق، ص 62.

للحضارة الإسلامية، وشيدوا عليها فيما بعد نهضتهم الحضارية، وكانت النخب الأولى من العلماء والمتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية هي الطلائع المتقدمة من المستشرقين، الذين لم يكن هدفهم الاستفادة العلمية فحسب، بل كان الهدف الحقيقي يتمثل في الاطلاع على التراث الإسلامي والثقافة الإسلامية بغية تفهمها والرد عليها[29].

وتميزت هذه المرحلة بترجمة القرآن الكريم للغة اللاتينية التي دعا إليها بعض القساوسة، والتي كانوا يهدفون من ورائها -حسب زعمهم- إلى هداية المسلمين لمحاسن الديانة المسيحية، لاعتقادهم أن الإسلام ما هو إلا هرطقة مسيحية هي آخر الهرطقات وأشدها ضرراً، ولمحاربة الإسلام وإظهاره بمظهر مناف للتعاليم المسيحية السمحة، ومحاولة تنصير المسلمين وردهم عن دينهم[30].

وهذا يعني أن الاستشراق في هذه المرحلة ربما يكون وليداً للتنصير، وناتجاً من نواتجه، وليس العكس.

أما مرحلة ما بعد الحروب الصليبية التي شنها الغرب على الشرق باسم الصليب والتي دامت ما يقارب المائتي عام، فقد كانت مجالاً خصباً لآلاف الكتب والمباحث والمقالات والتحليلات، لأسبابها ونتائجها والآثار المترتبة عنها بين الشرق والغرب، وخاصة في جوانبها الفكرية والثقافية التي تولد عنها الاستشراق، واستعرت بسببها موجة التنصير، حيث إن هزيمة الصليبيين العسكرية وفشلهم في غزو المسلمين بقوة السلاح جعلهم يفكرون جدياً في الغزو عن طريق تلويث الفكر، خاصة بعد ظهور وصية لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة، والتي جاء فيها -بعد نجاته من الأسر- بأنه لا سبيل للتغلب على المسلمين بقوة السلاح بسبب تضحياتهم وصلابة عقيدتهم، ولكن ينبغي أن يكون الغزو الفكري هو السلاح الأكثر فعالية للتعامل مع المسلمين.

وقد قام بهذه المهمة العلماء الأوروبيون الذين كانوا في معظمهم من

29- انظر: شلتاغ عبود، مظاهر الاحتكاك بين الإسلام والغرب، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 17 طرابلس لعام 2000م، ص 45.

30- انظر: ساسي الحاج، المصدر السابق، ص 48.

القساوسة والرهبان واليهود بعد تعلمهم العديد من اللغات الشرقية، وبعد أن فتحت أوروبا كراسي هذه اللغات في الكثير من الجامعات الأوروبية، وتم اعتماد الكثير من الكتب كمناهج دراسية[31].

وتمخضت هذه المرحلة عن ولادة الاستشراق والتنصير، فالأول كان يهدف إلى فهم العقلية العربية والإسلامية من أجل التعامل معها، والسيطرة عليها وتدمير مقومات تماسكها وصمودها، وأما الثاني فقد كان يهدف إلى الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره من أجل نشر المسيحية.

وبرز إلى عالم الفكر فلاسفة ومفكرون أوربيون طالبوا بالتنكب عن الحل العسكري، واللجوء إلى الحل الفكري لإنهاء المسألة الشرقية، والتبشير بين المسلمين بالموعظة الحسنة. وبمرور الزمن تحول ذلك إلى نوع من الطعن في الحضارة الإسلامية وتراثها، عن طريق حملات التحريف والافتراء على الإسلام وأهله، وكانت الكنيسة تغذي هذه الروح التعصبية، التي أدت إلى رسم صورة مشوهة عن الإسلام وأهله في الذاكرة الغربية إلى اليوم.

وتميزت هذه الفترة بتأسيس المدارس والمعاهد العربية في كثير من الدول الأوروبية، إضافة إلى فتح كراسي للدراسات الشرقية في العديد من الجامعات الأوربية، وزاد تشجيع مراكز الترجمة بسبب ظهور الطباعة، ناهيك عن الاهتمام بجمع التراث الإسلامي وكنوزه، ونقله إلى أوروبا بكل الطرق الممكنة[32].

أما مرحلة التنظيم الفعلي للاستشراق فقد بدأت بدخول الاستعمار الغربي إلى أرض الشرق وفي مقدمتها استعمار أرض العالم الإسلامي، خاصة بعد أن أصبح للمستشرقين معارف واسعة عن الشرق وعاداته وتقاليده، واقتصادياته وطرق تجارته، ومكنت تلك الدراسات التحليلية الاستعمار الغربي من معرفة مواقع القوة والضعف في معظم الأقطار الشرقية، وخاصة الإسلامية منها، و الاستيلاء على ما تبقى من التراث الإسلامي ودراسته بصورة مستفيضة، حتى قيل إن المخطوطات

31- م. ن. ص. ن.

32- محمد الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، مصدر سابق، ص 66.

العربية التي احتوتها مكتبات الغرب في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بلغت مائتين وخمسين ألف مجلد، وهي في تزايد مستمر بسبب نشاط حركة الاستشراق[33].

وتميزت هذه الفترة بالتنسيق المنظم للاستشراق بالتلاقي والتشاور عن طريق المؤتمرات الاستشراقية التي أصبحت تعقد بصورة رسمية بين الحين والآخر، وأصبحت الحكومات الغربية تنفق الأموال الطائلة، وترصد الميزانيات الضخمة على أبحاث المستشرقين وأعمالهم خدمة لمصالحها الاستعمارية، وأصبح هؤلاء المستشرقون على صلة وثيقة برجال القرار والسياسة في كافة الدول الاستعمارية، كما تميزت هذه الفترة بظهور العديد من الكتب والموسوعات والأبحاث المتعمقة التي تناولت الثقافة العربية الإسلامية في مختلف نواحيها. وتحول الاستشراق إلى طور الهجوم الخفي والمستمر تجاه الإسلام والمسلمين بدلاً من الهجوم المباشر الذي كان يحتوي على أبشع الأوصاف لكي يوهمنا بأن الاستشراق قد تحول في كتاباته عن الإسلام إلى الموضوعية والحياد، رغم استمراره في الكيد والتشويه والافتراء بأساليب جديدة أصبحت تدس السم في الدسم.

أما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي تستمر حتى يومنا هذا، فقد تميزت بازدياد نشاط أقسام الدراسات الشرقية في العديد من الجامعات الغربية بسبب زيادة أعداد الطلاب الموفدين لمواصلة دراساتهم في تلك الأقسام، وأصبحت الدراسة فيها موجهة توجيهاً سياسياً استعمارياً إلى جانب التوجيه العلمي لخدمة أغراض غربية معينة، مع تدخل الدول الغربية في توجيه المناهج العربية والإسلامية إلى الوجهة التي تخدم أغراضها بحجة تحييدها عما تسميه بطريق الإرهاب، إضافة إلى توسيع عقد المؤتمرات، وتطوير أساليبها، وتوسيع دوائر عضويتها، وزيادة عدد المطبوعات والأبحاث العلمية، وفرض عدد من رجالاتها كأعضاء في مجامع اللغة العربية في بعض الدول العربية والإسلامية التي توجد بها

33- أنور الجندي، الإسلام في وجه التعريب، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 7 طرابلس لعام 2000 م، ص 178.

أمثال هذه المجامع، وتكليفهم بإلقاء العديد من الأبحاث والمحاضرات في تلك المجامع وكذلك في الجامعات العربية بصورة شبه دورية. وارتبط الاستشراق في هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً بالدوائر الاستعمارية، والهيئات الاستخباراتية والدبلوماسية والكنسية في معظم الدول الغربية.

إلا أنه من الموضوعية والإنصاف أن نشير إلى أن مراحل الاستشراق المختلطة، كانت لا تخلو من الجوانب العلمية التي استفاد منها العرب والمسلمون بسبب أبحاث المستشرقين ودراساتهم، والتي اتسمت بالصرامة والمنهجية الدقيقة، التي لم يكن البعض منها معروفاً داخل البيئة الإسلامية. كما تمكنت هذه الأبحاث من إلقاء الضوء على العديد من جوانب التراث الإسلامي التي كانت في زوايا الإهمال والنسيان، وعرّفت العالم بأجمعه على بعض الجوانب المضيئة في الحضارة الإسلامية.

دوافع الاستشراق

أما دوافع الاستشراق فقد تعددت وتنوعت؛ فمنهم من رأى أن الاستشراق بدأ بهدف ديني بحت، تمثل في شعور المسيحيين بالخطر عندما بدأ الانتشار السريع والواسع للإسلام، الأمر الذي جعلهم يفكرون جدياً بالثأر لهذه الهزيمة بسلاح آخر هو السلاح الفكري الذي يرونه أكثر فاعلية في وقف التيار الإسلامي، خاصة أن هذا الاتجاه كانت تغذيه الكنيسة ورجالها الذين كانوا يكنون حقداً دفيناً للإسلام وأهله، وأن جل المستشرقين كانوا من القساوسة ورجال الدين الذين تخرجوا على يدي الكنيسة لهذا الغرض.

بينما يرى البعض أن الدافع الاقتصادي يأتي في مقدمة بقية الدوافع الأخرى للاستشراق، وخاصة عند المفكرين اليهود الذين يعتبرون أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأساسي للتاريخ، ومن هنا باتوا يسعون إلى السيطرة على ثروات الشعوب ومواردها.

بينما يرى آخرون أن كل ذلك يمكن أن يتحقق عن طريق الدافع الاستعماري للاستشراق الذي تعمل فيه الدول الاستعمارية على بسط نفوذها

وسيطرتها على الأمم والشعوب الضعيفة بما يحقق لها الأطماع السياسية و الاقتصادية و العسكرية.

لكن الدافع السياسي هو الذي يراه البعض أكثر خطورة وخاصة في العصر الحاضر الذي جعل معظم دول العالم الثالث وفي مقدمتها الدول العربية والإسلامية لازالت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعد نيل استقلالها بعلاقات جاوزت المجال الدبلوماسي مع الدول الغربية التي كانت تستعمرها، وأصبحت تحرك حكامها حسب رغباتها الاستعمارية، وليس حسب مصالح شعوبها وأوطانها، مما جعل معظم حكام العرب والمسلمين يرتبطون بهذه السفارات الأجنبية بعلاقات وثيقة جعلتهم أداة طيعة في تنفيذ أوامر أسيادهم، خاصة أن هذه السفارات كانت ولازالت تعتمد في تنفيذ مخططاتها على رجال لهم باع طويل في مجال الدراسات الاستشراقية التي عرفوا من خلالها ميول الشعوب الشرقية ونفسياتها.

أما الدافع العلمي فقد أجمع جل الباحثين على أن الدراسات الاستشراقية لم تتسم في أية مرحلة من مراحلها بطابع علمي محض غير مشوب بشوائب أخرى كان المستشرقون يرغبون في تحقيقها، رغم وجود فئة من المستشرقين اندفعت برغبة علمية صادقة، وبدافع ذاتي وهواية شخصية تطورت إلى نوع من الاحتراف في دراسة التراث العربي والإسلامي، مما نتج عنه دراسات قيمة في هذا المجال، قدمت فائدة علمية، واتسمت بالموضوعية إلى حد كبير، ولكنها لم تكن خالية تماماً من بعض الشطحات والتحريفات بسبب جهل أو تقصير في فهم النصوص العربية، أو بسبب تأثر المستشرقين بأفكار وثقافات بيئاتهم الغربية، أو نتيجة لاختلاف المنهج المادي الذي يتبعونه.

وقد أوضحت بعض أبحاث المستشرقين جوانب هامة من حقيقة الدين الإسلامي لمن يجهلونه وأظهرت أصالة هذه الحضارة، وفندت آراء بعض المتعصبين واظهرت افتراءاتهم، فقد نقل عن (هادريان ريلاند) في كتاب (الديانة المحمدية) دعوته إلى تصحيح الكثير من الآراء الغربية الخاطئة حول الإسلام عن طريق دراسة مصادره الأصلية الموجودة بالكتب العربية حتى يعرف القارئ أن هذا الدين الذي انتشر انتشاراً بعيداً في كل من آسيا وأفريقيا وأيضاً أوروبا ليس ديناً

ماجناً كما يتخيل الكثير من النصارى[34].

أهداف الاستشراق

ولو تطرقنا إلى أهداف الاستشراق لرأينا أن هذا الكم الهائل من المستشرقين الذين جندوا أنفسهم، وأفنى البعض منهم أعمارهم في دراسة حضارة غريبة عنهم بعد أن وضعت كل الإمكانيات المادية والمعنوية تحت تصرفاتهم، وكانوا على صلة وثيقة بالدوائر الاستخباراتية والدبلوماسية في بلدانهم، كل ذلك يجعلنا على يقين تام بأن للاستشراق أهدافاً خطيرة، وكبيرة يسعى لتحقيقها في دراسته للحضارة الإسلامية، وتراثها، يتمثل أولها: في إعطاء صورة مشوهة عن الإسلام كدين، وعن الشرق كحضارة، وعن العربية كتراث وقومية، وهو بهذا ينفذّ آراء الكنيسة التي تحاول باستمرار التنفير من هذا الدين على يد طلائعها الأولى من المستشرقين اليهود الذين كانوا يعرّفون المسلم بأنه الخائن[35] أو الإنسان الذي لا إنسانية له[36]. ويعتبرون الإسلام هرطقة مسيحية، هي آخر الهرطقات وأشدها ضرراً على الإطلاق[37] ويتمثل ثانيها في العمل على تحطيم الإسلام من داخله، عن طريق تشكيك المسلمين في كتابهم ودينهم وتراثهم، وهي عناصر قوة الإسلام والمسلمين التي يخافونها، ولا يخفون قلقهم حيالها بل يتمنون زوال الإسلام حيث عبر بعض المتعصبين عن هذا بقوله: « إن الشرط الجوهري لنشر الحضارة الأوروبية هو زوال الإسلام، وستظل الحرب قائمة في هذا المضمار، ولن تنتهي إلا عندما يموت آخر ولد من ذرية إسماعيل، أو يدحره الإرهاب فيتقهقر حتى قلب الصحراء »[38].

34- انظر: محمد الزيادي، الاستشراق وأهدافه ووسائله، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس لعام 2002، ص 28/27.

35- انظر: محمد الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، مصدر سابق، ص 68.

36- فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص 38.

37- عبد الرحيم السائح، المصدر السابق، ص 174.

38- شوقي أبو خليل، أضواء على موقف المبشرين والمستشرقين، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1991م، ص 5.

أما ثالث هذه الأهداف؛ فيتمثل في خلق أجيال هزيلة خانعة، فاقدة للثقة في نفسها ودينها وأمتها، متعلقة بصدى حضارة الغرب المادية، سائرة في ركابها طواعية دون إكراه أو تذمر من أجل تعميم الفكر الغربي وتسيير العالم بأجمعه في فلك المركزية الغربية.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف وغيرها تركزت أبحاث المستشرقين في عدة محاور أهمها:

- التشكيك في صحة نبوة رسول الإسلام ﷺ وتفسيرها لبعض مظاهر الوحي على أنها نوبات من الصرع والهستيريا والمرض النفسي والتخيلات الذهنية رغم أنهم يكذّبون بعضهم بعضاً في هذه التلفيقات، ويؤكدون على أن الحافظة عند المصروع تكون معطلة، بينما هي سليمة عند رسول الإسلام ﷺ؛ لأنه يكون على وعي كامل بكل ما يراه، بل إن ما يراه هو المنهاج الذي كلفه الله به لتبليغه لأمته، حتى اعترف المستشرق المسلم (دينيه) بأن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي عليه السلام: «لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي جاء بها المستشرقون لا نجد إلا خلطاً وخبطاً»[39].
- التشكيك في صحة القرآن الكريم على أنه ليس وحياً منزلاً، ولكنه من صنع محمد، والذي استمده بدوره من الأمم السابقة، ويزعمون أن ذلك راجع إلى ذكائه وعبقريته وقوة بيانه.

ولم يتركوا في القرآن شاردة ولا واردة إلا وأشبعوها نقداً و تشويهاً وتشكيكاً. لأنهم يعرفون أن هذا الكتاب هو سر قوة الإسلام والمسلمين ومن هنا أنصب هجومهم على كل حرف من حروفه أو آية من آياته، حتى إن (جلادستون) رئيس حزب الأحرار البريطاني ورئيس مجلس العموم شعر بأهمية هذا الكتب عندما رفع المصحف بيده مخاطباً المجلس قائلاً: «ما دام هذا الكتاب باقياً على

39- ساسي الحاج، المصدر السابق، ص 44.

الأرض، فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل ونحن على خطر في أوطاننا»[40].

وهم بهذا يريدون ضرب لب العقيدة الإسلامية باعتباره السلاح الأقوى الذي يتمترس حوله المسلمون.

- التشكيك في العقيدة الإسلامية، والدين الإسلامي كله، وإنكارهم أن يكون الإسلام ديناً منزّلاً من عند الله تعالى، ويعدونه مزيجاً منتخباً من الفكر اليهودي والمسيحي، وحتى عندما يفحمهم القرآن بحقائق تاريخية عن الأمم الماضية أو بأخبار وغيبيات لا يستطيع إنسان أمي أن يدّعيها، فإنهم سرعان ما يلجأون إلى مزاعم جديدة، وافتراءات باطلة لا يجدون لها دليلاً يسندها تحت مظلة البحث العلمي.

ومن هنا فإننا لا يمكن أن ننتظر من معظم المستشرقين بحثاً مبّرءاً عن العيوب -خاصة في مجال الدين الإسلامي- لأنه شيء يتنافى مع وظيفة الاستشراق الذي يمهّد الطريق أمام الاستعمار الغربي، كما تمهّد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة في فنون الحرب، وذلك لأن الاستشراق ما هو إلا كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجّرد وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام، وتشويه محاسنة، والافتراء عليه.

- التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف الذي يطلق عليه أحياناً السنة، والتي تعني أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن هنا وجب العمل بمقتضاها إذا جاءت روايتها عن الرسول عن طريق العدل الضابط، إلى العدل الضابط إلى منتهاه بدون شذوذ ولا علة، وأساس حجيتها ما في القرآن الكريم من الأمر بطاعة الرسول وجعل طاعته طاعة لله.

لكن المستشرقين الذين هم في معظمهم من اليهود قد دأبوا على التقليل أو الانتقاص من كل ما هو عربي حتى ينفوا عن حضارتنا أية رسالة سماوية أو

40- شوقي أبو خليل، المصدر السابق، ص 120.

تجديد أو إبداع، وهي النظرة ذاتها التي كان يحملها أجدادهم عبر التاريخ عن الآخرين والتي أدت بهم إلى تحريف التوراة من أجل حصر النبوة والحكم والعهد في ذرية إسحاق (جد اليهود) بدلاً من أخيه إسماعيل (جد العرب).

وهو ما ينطبق أيضاً على النصرانية التي هي ربيبة اليهودية التي تنفي أن يكون هناك رسول بعد عيسى.

- التشكيك في معظم جوانب التراث الإسلامي العلمي والحضاري، ومن بينها الادعاء بأن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وأن اللغة العربية ليست قادرة على مواكبة التطور العلمي، رغم أنها كانت إلى عهد قريب في عصر انحطاط الغرب هي لغة العلم والحضارة والفلسفة، حتى إن روجر بيكون وهو أحد أعلام النهضة الأوروبية ينادي بقوله: «عجبت ممن يريد أن يدرس الفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية»[41]، وهذه اللغة هي التي أسست حضارة شامخة قال عنها (إيمرتون): «إن الثقافة التي حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصلبيين من الحياة البربرية، ودفعتهم قدماً إلى عالم الحضارة»[42]، وقال عنها (ليبري): «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون»[43].

وأما من حيث الادعاء بأن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني؛ فإننا نكتفي باقتطاع فقرة واحدة من ردود الشيخ الغزالي في هذا المجال الذي رأى بأننا قد نجد العذر لهؤلاء المستشرقين الواهمين لو أن القانون الروماني والتشريع الإسلامي يتفقان في المنابع والغايات، أو يتشابهان في الحقوق والواجبات، أو يتقاربان في المبادئ والعقوبات أما أن الشريعة الإسلامية تناقض هذا القانون في القيم الخلقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة في النظرة إلى الإنسان، وإلى

41- عبد الرحمن عميرة، المصدر السابق، ص 120.

42- أنور الجندي، إطار إسلامي للفكر المعاصر، المكتب الإسلامي، دمشق، 1967م، ص 19.

43- عبد العظيم المطعني، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1 1987م، ص 452.

الحياة كلها، فإن القول باستفادة الفقه الإسلامي من الرومان قول بيّن البطلان[44].

وقد عمل الاستشراق دوماً على الإساءة للإسلام والمسلمين، وضرب وحدتهم عن طريق إثارة الفتن والقلاقل، والحيلولة دون تقاربهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

فهو الذي مهد الطريق أمام الاحتلال الغربي لغزو الشرق ثقافياً وعسكرياً لأن الاستعمار الحديث قد اعتمد على المستشرقين اعتماداً كلياً في دراسة نفسيات الشعوب، وعاداتها، وتقاليدها، وأفضل الوسائل للسيطرة عليها بأقل التكاليف.

ومن هنا فغالباً ما نجد في سفارات الدول الاستعمارية مستشرقين يعملون بها بصورة دائمة، آخذين على عاتقهم مهمة الاتصال بالعقول المفكرة في البلدان التي يريدون السيطرة عليها، واستقطاب ذوي المناصب القيادية والنخب في تلك البلدان، وإقناعهم بتنفيذ خططهم وبرامجهم عن طريق الصداقة والإغراء حيناً آخر والتحذير والتهديد حيناً حتى أصبحوا أداة طيعة لتنفيذ برامج الاستعمار في بلدانهم.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ بل أصبح بعض هؤلاء المفكرين الشرقيين هم الوكلاء الحقيقيين للمستشرقين في توزيع أفكارهم، والدعوة إلى تبني آرائهم في الفكر الإسلامي وقضاياه، وأصبحت الماركسية والوضعية والوجودية تجد لها مندوبين شرقيين متحمسين أكثر من المفكرين الغربيين أنفسهم، حتى وصل الأمر إلى الدعوة إلى تأليه الإنسان، وأنسنة الإله، وشحذ الوجدان العربي الإسلامي بمفاهيم مضللة، كالتنوير والتقدمية والنهضوية وغيرها[45]، حتى نادى البعض منهم بإتباع الغرب في كل شيء مثلما صرح (طه حسين) في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) بضرورة محاكاة الغرب بحيث ننام كما ينامون، ونأكل كما

44- المختار علي الطوير، نقد الفكر الاستشراقي في دراسات ساسي الحاج، منشورات جامعة الجبل الغربي، ط 1 2008م بنغازي ليبيا، ص 53.

45- انظر: محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 6، القاهرة، ص 3.

يأكلون، ونتكلم بلغتهم كما يتكلمون[46].

ومن هنا أصبح الفكر الإسلامي يموج بتيارات متضاربة ومتصادمة حول كثير من القضايا، ومنها قضية الخلافة، وما سموه بقضية تحرير المرأة، والطلاق، وتعدد الزوجات، وامتد الأمر إلى زوجات الرسول ﷺ، وشغل الفكر الإسلامي بقضايا وهمية تم استيرادها من الغرب أدت إلى نشر الفرقة والتعصب والتحزب، ومزقت الصفوف وجعلت المسلمين يكتوون بنارها حتى اليوم[47].

وقد عمل الاستشراق جاهداً على إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب، وتمزيق وحدتها، وضرب جميع مقومات تماسكها:

- فقد نادى بإحلال العامية محل اللغة العربية في كل قطر، وشجع في جامعاته على الحصول على الشهادات العليا عن طريق هذه العاميات من أجل القضاء على لغة القرآن الكريم باعتبارها مقوماً أساسياً لتماسك هذه الأمة وصلابة عودها.

وعمل على بث الفتن والمؤامرات، وإثارة الشقاقات بين أبناء المجتمع الواحد، كإثارة النعرات بين المسلمين والنصارى (الأقباط)، وبين الشيعة والسنة، وبين الشافعية والزيدية (الحوثيين حالياً)، وبين المالكية والإباضية، وبين الشمال والجنوب في كل قطر، ووقف دائماً خلف الأقليات في كل بلد وساعدها على الثورة والتمرد ضد الحكم المركزي، من أجل ضرب استقرار المجتمعات الإسلامية بدواعي الحرية وحقوق الإنسان التي نراها أكثر انتهاكاً في دول الغرب الاستعمارية، خاصة إذا تعلق الأمر بالشعوب الأخرى.

- الترويج من قبل المستشرقين لمقولات خطيرة داخل المجتمع الإسلامي، ومن بينها الادعاء بأن تأخر الشرق يرجع إلى تمسكه بالدين الإسلامي وتعاليمه، وأن تحضر الغرب مرده إلى ترك الدين، والاتجاه إلى العلم والتكنولوجيا، وهي مقولات خاطئة وتضلله بقصد الخداع والضحك على

46- محمد الجليند، الاستشراق والتبشير، دار قباء للطباعة والنشر، ط1 القاهرة 1999 م، ص 81.
47- م. ن. ص. ن.

الدقون، فلا الدين الإسلامي كان سبباً في هذا التأخر، ولا الغرب ترك دينه حتى وصل إلى بناء حضارته، ولكن التأخر والتقدم له أسبابه وعوامله ونتائجه وما إقحام الدين في هذا المجال إلا للتضليل والافتراء، بل العكس هو الصحيح، إن تأخر العرب والمسلمين يرجع إلى بعدهم عن دينهم وإهمالهم لتعاليمه وتشريعاته، فلو التزم المسلمون بالشورى في حكمهم، وتطبيق أحكام الله بين البشر، وتوفير الحق والعدالة والحرية بين شعوبهم، وعرف الجميع حقوقهم وواجباتهم تجاه الآخرين، وطلب كل منهم العلم من المهد إلى اللحد، وقام علماء الأمة بواجباتهم لتصحيح انحرافات الشعوب والحكام، وطبقت أحكام الجهاد لتحرير الأرض، وانتشرت الفضائل والقيم التي نادى بها الإسلام بين المجتمعات، وأصبحت العلاقات الإسلامية مع الدول الأخرى يربطها الاحترام المتبادل، وليس الإذعان والانقياد لدول الاستعمار.

لو حدث هذا لتقدم المسلمون قبل غيرهم، ولأعادوا بناء حضارتهم من جديد، ولتمكنوا من كسب احترام الآخرين وتقديرهم. ولكن نتيجة لتركهم مثل هذه العوامل فقد وصلوا إلى مرحلة من الانحطاط في هذا العصر لم يسبق لها مثيل، مما جعل بعض المأجورين يطمعون في تقويت مثل هذه الادعاءات المفضوحة التي لا يقبلها المنطق أو العقل السليم.

ونعتقد جازمين بأن الاستشراق إلى جانب عوامل أخرى هو المسئول الأول عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية إلى يومنا هذا، حتى أصبح الغرب يتعامل معنا على أننا العدو الأخطر الذي يهدد الحضارة الغربية، واتسمت مواقفه ضدنا بالعدائية والتحيز ومنها:

- مناصرته لدولة الكيان الصهيوني بشتى الطرق والأساليب، وتزويدها بأحدث الأسلحة الفتاكة لالتهام أرضنا، وقتل أهلنا وأطفالنا في فلسطين ولبنان في أشرس المذابح العسكرية في التاريخ الحديث، وتأييدها في المحافل الدولية على أن فعلها حق مشروع.
- حبك المؤامرات والاتفاقيات ضد العالم العربي والإسلامي، وتطويق تحركاته،

والقضاء على ما تبقى من حضارته وتراثه ودينه بشتى الوسائل والطرق.

- منع دول العالم الإسلامي من اكتساب التكنولوجيا الحديثة، والحيلولة دون تقدمها، وذلك مثلما يحدث حالياً مع إيران التي يحرمون عليها ما يحللونه لأنفسهم، وحتى إذا ما تمكنت بعض هذه الدول من اكتساب جزء من هذه التكنولوجيا، فإنهم سرعان ما يرهقونها ببرامج ماكرة، وأساليب مخادعة للتنازل عنها، أو تسليمها لهم مثلما يحدث حالياً مع باكستان.
- إلصاق التهم المتعددة والمتنوعة بالعالم الإسلامي والتي أصبحت تطلق جزافاً من قبل دول الغرب الاستعمارية، ومن بينها ربط قضية الإرهاب بالشعوب العربية والإسلامية وتضخيم هذا الموضوع عن طريق الإعلام الغربي الذي يسيطر عليه الصهاينة وإتباعهم، حتى أصبحت مقاومة الاحتلال و تصنف تحت مفهوم الإرهاب، أما الإرهاب الذي يمارسه الصهاينة والدول الاستعمارية ضد الشعوب الأخرى فلا ينسحب عليه هذا المفهوم، وخير مثال على ذلك ما حدث لأطفال لبنان وغزة من تدمير، وما تعرض له أطفال تشاد وهاييتي من محاولات للبيع في سوق النخاسة في هذا العصر، ورغم ذلك لم نجد لهذا الموضوع صدى في الإعلام الغربي.
- ترويج الإعلام الغربي بطرق ممنهجة لمعاداة العرب والمسلمين، وابتكروا لهذا العداء وسائل متنوعة ومتعددة ومن بينها اختراع ظاهرة (الإسلاموفوبيا) وهي كلمة دخلت قاموس السياسة الأوربية وخاصة في بعض الدول العنصرية، وهو مصطلح يعني الخوف من الإسلام، ورفع شعار العداء ضده، وأحياناً يكون هذا العداء صارخاً ومعلناً، وكثيراً ما يكون مبطناً وخبيثاً، وهذا الخوف يدعون فيه أن الإسلام يعتبر مصدر تهديد للحضارة الغربية، ويتهمونه بأنه البديل المعاصر للنازية والشيوعية، باعتباره يتضمن مكائن للغزو والتوسع، والادعاء بأن المسلمين يستخدمون معتقدهم الديني لتحقيق أهداف سياسية واستراتيجية وعسكرية رغم براءة الإسلام من هذه التهم الملفقة.

وقد تحولت (الإسلاموفوبيا) إلى ظاهرة راسخة في المجتمع الأوربي وخاصة المجتمع البريطاني وأصبحت جزءاً من نسيج العنصرية لاستيعاب التميز

على أساس ديني بجانب الأساس العرقي[48].

- كما أن قضية الحجاب الإسلامي أصبحت من الأهمية بمكان في الدول الغربية إن مناقشات طويلة في البرلمانات الأوروبية عقدت بشأنها وكأنها قنبلة موقوتة تهدد الأمن العالمي، وليست قضية شخصية تخص حرية الإنسان ولباسه ودينه، وخاصة عندما يكون ذلك من البلدان التي تتبجح بحرية الإنسان مثل فرنسا.

- كما وصل الأمر ببعض المتطرفين إلى تعبئة الرأي العام ضد الإسلام، عندما صوت الشعب السويسري ضد بناء المآذن والمساجد الإسلامية في هذا البلد الذي يفتخر بأنه على رأس شعوب العالم احتراماً للآخرين، وتوفيراً للعدل والحرية والمساواة والاستقرار.

- إضافة إلى أن معظم الدول الأوروبية قد اتخذت إجراءات صارمة ضد المهاجرين العرب والمسلمين لمنعهم من الاستقرار في الدول الغربية، ادعاء منهم بأنهم يشكلون خطراً على أمنها وحضارتها، وحتى من استقر منهم وتحصل على جنسية الدولة المضيفة، فهو يتعرض للمضايقات والاستفزاز بين الحين والآخر، كما أنه لا يتمتع بحقوق المواطنة العادلة التي تكفلها القوانين الدولية.

- ولم يتورع المتطرفون الذين يحملون شعار العداء للإسلام وأهله من ابتكار أساليب جديدة ومتجددة لإهانة الإسلام ورموزه كلما سنحت الفرصة بذلك، وخير مثال على ما نقول ما أثاره الإعلام الغربي من صور ساخرة لنبي الإسلام، وما حدث من طنطنة مفضوحة، وتأييد سافر من معظم الدول الغربية لما قام به الكاتب الهندي المأجور (سلمان رشدي) في كتابه (آيات شيطانية)، وما قام به الغرب من تحريض لهتك شعائر الإسلام وتعاليمه عندما دفع بامرأة لإمامة المسلمين في صلاة جماعية والتي تعرضت لها معظم وسائل الإعلام في السنوات الماضية.

48- انظر: أحمد شلبي، المناهج الإسلامية، مكتبة النهضة، ط 8 القاهرة 1992م، ص 103.

كل ذلك يعبر عن مخطط رهيب وشامل للنيل من الإسلام، حتى يتمكنوا من إقناع البقية الباقية في الغرب بأنه العدو الأوحد والأخطر الذي يهدد حضارتهم المادية، ويتزامن ذلك مع منهج أخر يتمثل في التصفيات الجسدية للرموز النضالية والوطنية التي تكافح من أجل تحرير الأوطان في عالمنا الإسلامي، وما اغتيال أحد هذه الرموز مؤخراً فيما عرف بقضية المبحوح إلا خير مثال على ما نسوق، والتي تعبر عن فضيحة مشينة من التزويرات التي اشتركت بها دول غربية متقدمة تدعي أنها صانعة للقانون، ومؤسسة للعدل والمساواة.

لذلك فإننا نعتقد أن هذا العداء الذي يكنه الغرب للإسلام والمسلمين، قد نشأ عن موروث قديم يمثل صورة مشوهة تولدت عن كتابات المستشرقين وأبحاثهم تجاه العالم الإسلامي ومعتقداته، والذي غدته الكنيسة وأشرفت عليه منذ العصور الوسطى إلى اليوم رغم تغيير الاستشراق لجلده ومظهره بما يتناسب مع كل عصر، إلا أنه لازال كما هو في جوهره ومخبره.

لكننا ينبغي ألا نلقي اللوم على الآخرين فحسب الذين قاموا بتشويه تاريخ هذه الأمة، وتراثها، وساهموا في تخلفها وانحطاطها، وافتعلوا لها أعداء في وقت كانت فيه تعاليم دينها تلزمها بربط عرى المحبة والسلام مع كل الأجناس والأمم.

بل ينبغي أن نلتزم من جانبنا بكل ما من شأنه أن يدفعنا إلى التقدم وإعادة بناء حضارتنا بما يتناسب مع هويتنا الإسلامية، وخصوصيتنا الحضارية، وعلى الأخص ما يمكن اقتباسه من الحضارة الغربية الحديثة، التي سبق لها أن استفادت في أول عهدها عن طريق المستشرقين من مقومات حضارتنا الإسلامية، بحيث يعيد التاريخ نفسه، وتطبق المقولة القائلة (ليتنا استغربنا مثلما استشرقوا).

ولكن من الموضوعية والانصاف أن نبين في نهاية هذا البحث أن هناك نخبة طيبة في الغرب تتصف بالموضوعية والحياد تجاه حضارتنا وتراثنا وتعمل أحياناً على مناصرة قضايانا والدفاع عنها، وتقف إلى جانب المستضعفين من شعوبنا، وتهاجم الغرب في تعصبه ضد قضايا أمتنا، ومنهم على سبيل المثال:

- سيرج لاتوش في كتابه (تغريب العالم).
- زيغريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب).

- روجيه جارودي في كتابه (من أجل حوار بين الحضارات).
- سيرين آرمسترونج في كتابها (الغرب والإسلام).

ولذلك فإننا لا يمكن أن نصف الغرب كله بأنه يمثل ليلاً حالك السواد بل تزينه نجوم وبقع مضيئة ربما تساعد على التقارب بين الأمم، وتساهم في انجاح حوار الحضارات.